الفصل الأول
الزواج

obeikandl.com

الزواج

١- تربية الأسرة

تناولنا في المدخل بعضَ القضايا التي كان لا بدّ أن نتفق عليها ونمعن التفكير فيها، وقد حاولنا لفت الأنظار إلى هذه القضايا التي ينبغي للجميع الوقوف عندها، والتفكير فيها بطرح بعض الأسئلة مثل: ما رأيكم في الحال العام؟ كيف تحللون الأحداث التي تجري حولكم؟ ما موقفكم من السلوكيات غير الأخلاقية التي لا ترضونها؟ هل فكرتم في إيجاد حلّ للمشاكل الأخلاقية؟

فإن كنا لا نستسيغ هذا الوضع الراهن في دنيانا، أو كانت بعضُ المفاسد تخترق صدورنا كالرمح، أو كنّا مستائين ممّن يقوم بهذه الأعمال غير الأخلاقية، فما الرأي وما العلاج الأمثل لهذه المشاكل في ظنّنا؟ أجل، لا بدّ من الإجابة على كلّ هذه الأسئلة.

إن تركَ الصلاة والاستهانة بها، والإعراض عن الصيام واستصعابه، والتسكّع في الشوارع والتجوال هنا وهناك كلّ ذلك يُناقضُ أخلاقَ المؤمنين، وإن كان البعض قد يرى أنها من مستلزمات الحرية، ومن ثمّ فإننا سنحاول كشف اللثام عن مفهوم كلٍّ من: الأخلاق، وعدم الأخلاق، والتربية؛ مستنيرين في كل ذلك بضوء القرآن الكريم، ومبادئه القويمة.

obeikandl.com

إنّ الركيـزة الأهـمّ فـي بنـاء الأخـلاق هي الإيمـان والعقيـدة، ولكن ليـس الأمر اعتقادًا فحسـب، فالعقيدة إن لم تُدعّـم بالتطبيق العملي، ولم يسـلك الإنسان طريقًا يقتضيه إيمانه فستظل العقيدة مجرّد قناعة ليس إلا؛ وهذا أمرٌ يجعل العقيدةَ غير موجِّهة للفرد ولا مؤثِّرة في حياته الشـخصيّة والأسريّة والاجتماعيّة.

والحـقّ أن الإيمان هو مصدرٌ للقوة والنـور، والكفر مصدرٌ للضحالة والخواء، لكن الإيمان الحقيقي لا تظهر قوته إلا بالعمل، ويتعسـر لمن لا إيمـان له أن يكـون نافعًا لمجتمعه، والنافعون منهم قلّـة قليلة جدًّا، فمثلًا هنـاك مَـن لا يؤمـن لكنه عفيـف، وإذا مـا نظرنا إلى هذا الأمـر من حيث معاييرنا الأساسية، فلا أدري هل يعد هذا الشخص من الفضلاء أو لا؟ لأن الفضيلة الحقّة هي التي تعتمد أصلًا على الإيمان والشعور بالمحاسبة.

أجـل، إن الإيمـان بالله والملائكة والرسـل والكتب السـماوية واليوم الآخر والبعث والنشـور والجنـة والنار والقَدَر؛ مـن العناصر المهمة التي تنظم حياتنا وتصل بنا إلى مستوى الملائكة، وتكفل لنا معيشةً قائمة على النظام والتوازن، ومن الأهمية بمكانٍ أداء ما يقتضيه الإيمان بهذه الأمور.

إن الآخرة مَحكَمةٌ لمحاكمة ما في الدنيا، ومكانٌ للسؤال عمّا إذا كان العبد قد أدّى شكره لربه ﷻ الذي خلقه إنسانًا في أحسن تقويم أم لا.

ففـي الدنيا حشـودٌ من الظالمين والجاحدين ومـن يصرّون على عدم إدراك حكمة الله تعالى وتجاهل آثاره المعروضة والبادية للعيان، بل هناك مَن يغمض عينيه ويتجاهل الكثرة الكاثرة من الجماليات الظاهرة؛ وهؤلاء لهم أعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسـمعون بها، وقلوب لا يفقهون بها؛ رغـم التناغـم والوئام فيما بيـن الآلاف من الألـوان والأصوات والنقوش واللهجات.

وهـؤلاء يبعثهـم الله تعالـى هـم والمؤمنين ويعـدّ لهم الجنـة والنار، ويشـرِّف الصالحين الفضلاء بدخول جنّته، جزاءَ ما قاموا به في الدنيا من فضلٍ وكمال، حيثُ بلغوا أعلى مرتبةٍ في كمال الإنسانية، وعاشوا منفتحين على الحياة القلبية والروحية وفي شوقٍ إلى بلوغ المعالي والكمالات.

أجل، إن المؤمن يفكر هكذا، وينظّم حياته وفقًا لذلك، ولذا لا بدّ أن تكـون عقيـدة الفرد والمجتمـع متينةً جدًّا حتـى تحفظهما قوة الإيمان من شتّى الأحاسيس المضلِّلة.

فلا خير يُرجى من عائلة أو مجتمعٍ أو أمة تتشـكّل من أفرادٍ مذبذبين بين الإيمان وعدمه، على الناس بداية أن يكون إيمانهم بالآخرة -وهي غد الدنيا- أشـدَّ من إيمانهم بغدِ أيامهم؛ حتى يكونوا قريبين من ربهم نافعين لمجتمعهم.

أجل، كما يحمل الإنسان همّ الجوع إن لم يعمل، فعليه أيضًا أن يؤمن يقينًا بأن الله تعالى سيحاسـبه حسـابًا شديدًا إن لم يحسن العمل في الدنيا ويقُـمْ بمقتضى ما يقرره إيمانه في شـؤون حياتـه، والفردُ الذي يعتنق مثل هذا الإيمان يتجه إلى الأعمال الصالحة بقوة الدفـع المركزية التي يشكّلها إيمانُه، ويبذل وُسعه للوصول إلى ربه عفيفًا طاهرًا.

وسـنتناول فـي فصلٍ مسـتقل موضـوعَ الأُسـر التي تتكون مـن أفراد كهـؤلاء، وسـنتناول أيضًـا التوجهـات المختلفـة للأسـرة، وكيفيـة تحلية الشـباب والصغـار داخل الأسـرة بالأخلاق الإسـلامية العاليـة، وهذا في ضوء الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة.

﴿**اَلْمَـالُ وَالْبَنُـونَ زِينَةُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا**﴾ (سُـورَةُ الْكَهْفِ: ١٨/٤٦)، فلو أحسـنّا استغلالهما لكانا لنا الزاد والعتاد إلى الآخرة، فبهما يهيّئُ الله تعالى قلوبَ الناس للسـعادة والسـرور، ويجعل منهما زينةً للعين وغذاءً للقلب، وكلما

رأى الإنسان هذه الزينة أحسّ بسعادةٍ دنيوية في حياته، وسعادةٍ أخروية في مآله، غير أننا إذا لم نسعَ إلى تخليد هذه الزينة فإننا نكون قد فوتنا على أنفسنا السعادة، ما من سعادةٍ نشعر بها إلا وتشوبها مرارة العيش.

أجل، قد يُزعجكم أولادكم وأحفادكم ودنياكم، لكن إن سعيتم إلى تخليد هذه الزينات، وأحسنتم رعايتَها من أجل مَن منحها لكم جلّ وعلا، وطوّرتموها واستخدمتموها في سبيله وفي الطريق الذي يريد، فستجدون البداية في كل نقطةٍ تظنونَها النهاية.

إن كلَّ زينةٍ وأُبَّهَةٍ وعظمةٍ فانيةٌ زائلةٌ بزوال الحياة الدنيا، بيد أنها ستتدثر بأروع الأشكال مع بداية العالم الآخر وتستمر هنالك.

٢- أهمية المنزل

إن كمالَ أي أمة أو مجتمع يبدأ من الأسرة، ومن المنزل الذي أقامه الزوجان وتعاونا على تأسيسه، ولذا لا بدّ للتربية أن تبدأ من المنزل حتى يُكتب لها البقاء والاستمرارية؛ فلا يُتصوّر مجتمعٌ فاضل دون أن يقوم المنزل على أسسٍ تربوية. نعم، السياسة القويمة للتربية والتعليم مهمة في تنشئة إنسان نموذجي، إلا أن المنزل سيظلُّ يحافظ على أهميته وحيويته دائمًا بما يزوّد به الطفل.

فإن توفرتْ للعقول التغذيةُ السليمة في المنزل ولا سيما في طور التغذية اللاشعورية، فقد تُبدي -بشيء بسيط من النصح والتنبيه- سلوكًا يُبهرنا ما لم تتعرض لعواصف معاكسة، وذلك بفضل المكتسبات اللاشعورية التي حصلتها في صغرها.

أجل، النجاح في المنزل هو مرحلة أولية للنجاح في الحياة العامة، وهذه المرحلة مرهونة بالزواج القائم على أسس سليمة.

٣- الغاية من الزواج

الأسرة ليست كما يفهم بعض الكتّاب مصنعًا لتوليد الأطفال، وليست آلةً للتفريخ أو لإشباع الرغبات الجسمانية، إنما هي النواة الأولى للأمة وأهم جزء في المجتمع، وهي مؤسسة مقدَّسة أبرز معالمها النكاح، والنكاح ميثاقٌ له هدف وغاية؛ وهو يعني اقتران اثنين بعقدٍ مشروع في إطار مبادئ معينة، أما الاقتران الذي تنعدم فيه قواعد النكاح فهو سفاح وزِنًا في شرع الله ﷻ.

والدينُ يجعل الاقتران المشروع بالنكاح ركنًا وأساسًا وقاعدةً للأمة الصالحة، بل إن الاقترانات المشروعة مرهونةٌ بغاية معينة، فحري بالمسلم أن يكون بالغَ الدّقة في مسألة الزواج؛ لأن الزواج العشوائي الذي يخلو من المقصد والهدف يُقوِّض الضوابط المشروعة.

أجل، لا بدّ أن يهدف الزواج إلى تنشئة جيلٍ يرتضيه الله تعالى، ويسعد به الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه.

أما إذا كان الزواج يفقد الغاية والهدف فهو ممحوقُ البركة، شأنه كشأن الأعمال التي تخلو من النية، وأيّ اقترانٍ يشبه الزواج، ويخلو من الغاية ولا يحاط بسياج من الإيمان ولا يكترث إلا بالمظهر الخارجي فقط فكثيرًا ما ينتهي بعدم التوافق وصعوبة التعايش فضلًا عن انعدام البعد الأخروي، وخاصة إن اقترن اثنان أحدُهما مؤمن والآخر لا يؤمن بالله ولا بالقرآن ولا بالرسول ﷺ، فلا مناص من وقوع خلافات فكرية ودينية، وظهور أفكار متناقضة من حيث الإيمان وعدمه، وتناقضات لا يمكن التخلص منها.

والزواج الهادف هو الذي يقوم على العقل والمنطق إلى جانب الحسّ والعاطفة، فإن ارتبط الزواج بغاية وهدف عمّت الأسرةَ الطمأنينةُ

والسكينة، أما إن لم يراع الهدف في الزواج فلا جرم أن النتيجة هي وقوع الكثير من المشاكل، وسيادةُ القلقِ والاضطرابِ الدائمِ على أفراد الأسرة.

لقد شرع الله الزواج وحثّ عليه، وربطه في الوقت ذاته بالهدف والغاية، وفي الواقع لا بدّ أن يتّخذ الإنسانُ غايةً له في كل أموره وسلوكياته؛ حتى يصمد في أعماله ومشروعاته في سبيل الوصول إلى الهدف الذي ينشده، وإن لم يتخذ غاية لحياته لم يستطع أن ينظّم وقته، أو يصل إلى أي هدفٍ ألبتة، وإن شئتم فسمُّوا هذا منهجًا أو مبدأً أو غائيّة.

والحق أننا إن لم نتشبث بالغاية في سلوكياتنا وأفعالنا لضيّعنا قدرًا كبيرًا من حظّنا في النجاح.

٤- شروط الزواج

عني الدين الإسلامي بمسألة الزواج عنايةً كبيرة تفوق جميع التصورات، وبناءً على ذلك فقد أولى فقهاء الإسلام هذه المسألة أهمية كبرى؛ فكتبوا حولها العديد من المجلدات، ودرسوها بدقة وعناية بالغة، وقسموا الزواج إلى واجبٍ وسُنّةٍ ومباح ومكروه وحرام؛ وربطوه بالوضع الخاص للأشخاص؛ وهذا يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يتزوّج عشوائيًّا كيفما اتّفق، بل إن الزواج قد يكون للبعض واجبًا، وللبعض الآخر حرامًا... وهكذا.

وعلى ذلك فإن مَن ينشد مِن زواجه إشباعَ رغباته الجسمانية فقط فهل يُنتظر منه أن يهبَ المجتمع ولدًا صالحًا أو أسرةً نافعة؟ هذا أمرٌ مشكوكٌ فيه!

وتتقارب آراء الفقهاء من بعضهم في هذه المسألة، ولو استعرضناها لظهر التصنيف التالي بمعالمه الرئيسة:

الـزواج الواجـب: يكـون الزواج فرضًا إن خاف الإنسـان على نفسـه الزنا، أو خطرَ الوقوع في الحرام وكان قادرًا على دفـع المهر والنفقة على أسـرته، بـل إن البعض زاد على ذلك عدم القـدرة على الصوم؛ بمعنى أن الـزواج لا غنًـى عنه، بل هو الحَلّ الأمثل لمن يخـاف الوقوع في الحرام، والإعـراضُ عـن الـزواج من خلال طرقٍ غيـر طبيعية هـو محاربةٌ للفطرة الإنسانية، ولا مناص من الهزيمة والخسران إزاء من يشن هذه الحرب.

الزواج المسنون: يكون الزواج سنةً إن كان للإنسان رغبة في الزواج، ولم يخشَ أي خطر.

الـزواج الحـرام: إن كان الـزواج سـيفضي إلى اتخاذ الشـخص طرقًا للكسـب غيرَ مشـروعة من أجل الإنفاق على بيته وأسرته أو كان سيفضي إلـى ارتكاب المحرمات مثل: الغش، والاختلاس، والرشـوة، فزواج هذا الشـخص حينذاك حرام، أو على الأقل مكروه، ومن الفقهاء من يرى هذا الحكم منطبقًا على فاقد الاتزان الذي قد يتأتَّى منه ظلم زوجته.

الـزواج المكـروه: يكون الزواج مكروهًا -وفقًـا لرأي بعض الفقهاء- إن كان هناك احتمالٌ -لا يقين- بأن الزواج قد يوقـع الإنسانَ في الحرام، أو يجرّه إلى الظلم.

الزواج المباح: يكون الزواج مباحًا -بل ومسـتحبًّا- إن كان الإنسـان يقظًـا حـذرًا يكسـب رزقه مـن حلال، ولا يخـاف على نفسـه الوقوع في الحرام، وكان قادرًا على دفـع المهر والنفقة، فمثل هذا الشـخص إن شـاء تزوّج، وإلا فلا.

ومَـن يمعـن النظرَ لا يـرى بين أقوال الفقهاء في مسـألة الـزواج بونًا شاسعًا.

أجـل، رَبَـطَ دينُنـا الزواجَ بغايـات وأهـداف، لأنّه ليس بالأمـر الهين الممكـن قيامُـه على الحـسّ والعاطفة فقـط، لأن هذا الأمـر المهم إن لم يقم على أسـسٍ سـليمة لا تتسـبب في أيّ خواء منطقيّ أو حسيّ فلا غرو أن نهايتـه أناسٌ على أبـواب المحاكم، وأراملُ وأطفالٌ لا عائل لهم، ولذا فـإن الديـن قد أقام من البداية سـدًّا لكلّ هذا، وحجـرَ على الناس الإقدام إلى مثل هذا الزواج درءًا لما بعده من السلبيات، وأدرجه في قائمة الحرام والمكـروه، وفضّـل في هذه المسـألة طريـقَ العقل والمنطـق والمحاكمة العقلية على الحسّ والعاطفة.

الأمـر الـذي نؤكـد عليه ههنـا هو أن الـزواج مسـألة جدُّ مهمّـةٍ، وبه تتكـون الأسـرة التي هي أهـم عنصر في المجتمـع، ولذا فإنـه لا ينبغي لنا عنـد التفكيـر في الزواج أن ننظر إليـه على أنه أمر بسـيط يتعلّق بالرغبات الجسمانية للفرد، بل على أنه مسألة عامة ووطنية ودينية ترتبطُ بسعادة الأمة بأسـرها، بل والإنسـانية جمعاء، أما بالنسـبة للأمر الخاص بالحالة النفسية والجسـدية للفـرد فهي بمثابة منحـة أو عطية يتفضّل الله بها على الإنسـان حتى يتيسـر تحقُّقُ الغاية العظمى، ويمكن القول بأنها عبارة عن سُـلفة، أو مكافأة معجَّلة على الخدمة العظيمة التي سـيقوم بها الفرد مثل حفظ نسـل بني البشر وتنشئة أفراد ذوي شخصية عالية ترقى بمستقبل الإنسانية.

والحـق أنّ الدين الإسـلامي يولـي أهميةً كبرى إزاء هـذا الموضوع، ويوصينـا أن نتحلـى بالدقة البالغة عند التفكير فيه، ونقيّم الأمر جيّدًا، وأن نحـذر مـن ارتـكاب أي خطإٍ؛ حتى لا يتأسـس المنزلُ على أسـس واهية تودي به إلى الانهيار.

تحليل الأدلة

إليكم بعض الأدلة في الترغيب في النكاح:

١- يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٣٢/٢٤).

٢- ويقول سيدُنا رسول الله ﷺ في حديثٍ حسنٍ: "**تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(١٠).

٣- ويقول ﷺ في حديثٍ آخر: "**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ**"(١١).

إن مَن لا قدرة له على النكاح؛ يعني الإنفاق ودفع المهر، أو بالأحرى من لا يستطيع أن يعول أسرةً فعليه أن يصبر حتى يغنيه الله من فضله، دون أن يفرّط في عفّته، أو يقتربَ من الحرام.

وإنّ الآية المذكورة رغمَ ما تتفرّدُ به عن الحديثين من معانٍ جليلة إلا أنّها تتلاحَمُ معهما في توكيدِ الحقائق عينها والفِكرة الأساسية ذاتها.

أعني أن حديث "**تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**" مضمونُه صريح إلا أنه قد يشير إلى مفهومٍ مخالف وهو: إن لم يستهدف المرءُ بالزواج تربيةَ نَسلٍ يَفتخر به سيدُنا رسول الله ﷺ فلا معنى قطّ من الزواج أو التكاثر، وبدهيٌّ أن الرسول الأكرم ﷺ لن يفتخر بنسلٍ وحشيٍّ صَدِئِ الفؤادِ لا تَعرف جبهتُه إلى السجود سبيلًا، ينغمس في لهو ومجون، ويجترح أعمالًا إرهابية، إن النسل الذي يريده سيّد الأنام ﷺ هو نسلٌ يرضى عنه الله ﷻ؛ نسلٌ يعيش الدينَ ويعايشه، ويتلهّف ويتعطّشُ لنيل رضا مولاه ﷻ، وأظهرُ برهانٍ على ذلك ما ورد في القرآن الكريم

(١٠) **سنن ابن ماجه**، النكاح، ١؛ عبد الرزاق: **المصنف**، ١٧٣/٦، (واللفظ لعبد الرزاق).

(١١) **سنن أبي داود**، النكاح، ٤؛ **سنن النسائي**، النكاح، ١١.

مـن بيانـاتٍ نورانيةٍ، يقـول ربنا ﷻ في واحدة منهـا: ﴿**الْمَـالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا**﴾ (سُـورَةُالْكَهْفِ : ٤٦/١٨).

أجـل، إن ابتغيتم الآخرة فـي أعمالكم كنتم من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

والنتيجـة: أن الهـدف الرئيـس مـن الزواج هـو تربية جيـلٍ يُرضي الله ورسولَه.

من أجل ذلك فعلى كلِّ متدينٍ، عاشـقٍ لأمته، متمسّكٍ بأسرته، يراعي الدقـة البالغـة فـي تربيته لأبنائه؛ ألا يتـردّد ألبتة في مسـألة إنجاب الأولاد بشكلٍ يتناسب مـع أصوله ومبادئه، رغمًا عن الأفكار الضالة التي تحوم في بيئته؛ لأن تكاثر نسلٍ كهذا سيرسم البسمة على وجه أمة سيدنا محمد ﷺ.

وأرى مـن الضـروري عرض هذه الوصية الجامعة التي أسـداها النبي ﷺ للشباب فيما يتعلّق بالأفكار التي أوردناها حتى الآن: "**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَـنِ اسْـتَطَاعَ مِنْكُـمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْـتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّـوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**"(١٢).

أولًا: يقوم الصوم عامةً مقام الحِمية؛ فإنه يضبط المعدة، ويسيطر على المشاعر البشرية، وييسّر استغلالها في السبيل الذي أمر به ربُّنا ﷻ.

ثانيًـا: الزواج حدثٌ خطير، وليس أمرًا بسـيطًا يمكـن أن يقرّره المرء أو يُقـدِم عليـه دون تأمـل وإعمـال فكـر، فـإنَّ أيَّ زواج تصحبـه العجلة والسـرعة دون إعمالٍ لعقل أو منطق يسـوده القلق والاضطراب، وإنْ نشأ الأطفالُ في مثل هذه الأسر المضطربة فلا مناص من أنهم لن ينالوا حظهم

(١٢) صحيح البخاري، الصوم، ١٠، النكاح، ٢؛ صحيح مسلم، النكاح، ١، ٣.

من التربية اللازمة، ولسوف يَنشؤون كاليتامى وإن كان لهم أب وأم، وقد يصبحون أعداءً لأبويهم بل لمجتمعهم؛ حيث لا شعور ولا حسّ لديهم.

والوضع في معظم البلدان الغربية على هذا النحو. أجل، إنهم لا يعتبرون مسألة الزواج مهمة حيوية، ولا يحققونها وفق ضوابطها اللازمة، بل ينظرون إليها على أنها أمرٌ عادي تمامًا كالأكل والشرب وإخراج الفضلات؛ هدفها هو تلبية بعض الرغبات الإنسانية، وليس هكذا فقط، بل ضيّقوا من دائرة الغاية، وجعلوا الزواج خاليًا من المعنى.

إن أوروبا الآن تدور على شفا جرفٍ تردّت فيه "روما" أمس، وتقترب من الموت خطوةً بعد خطوةٍ؛ لأنه لا بقاء لأمّةٍ فسدت فيها الأسرة، وانحلّت فيها أخلاقُ أفرادها.

لا أعرف كيف تفكّر الكنيسة في هذه المشكلة، وماذا يقول عنها علماء الاجتماع؟ وفيم يفكر التربويون؟ أما الذي أعرفه فهو أنه لا بقاءَ لمجتمعٍ معلولٍ بهذه البَلادة واللامنطقية.

ويُلَخِّصُ أحدُ المفكّرين الإسلاميّين انطباعه حول هذا الأمر فيقول:

> "عند دراستي لحياتهم الدينية في أمريكا صادفتُ أشياء عجيبة، وذات مرة رأيت الرجال والنساء يدخلون الكنيسة متلاحمين ليُؤدّوا شعائرهم، وبعد أن انتهى القسُّ من طقوسِه اصطحبهم إلى قاعةٍ أخرى يرقصون فيها ويلهون ويقومون بأمورٍ أخرى، ثم أطفأ الأنوار، وكان في سعادة عارمة وهم في لهوهم ولعبهم. أجل، كان سعيدًا؛ لأنه قد أتى بهم إلى الكنيسة".

بيد أنّ الغايةَ ليست هي مجرد الذّهاب إلى الكنيسة، بل ولا الذهاب إلى المسجد، ولا الطواف حول الكعبة، إنما الغاية الحقيقية هي رضا الله وأن يكون المرءُ على الطريق الذي يأمر به مولاه ﷻ ويرضاه.

obeikandl.com

ولقد سافر إلى أمريكا أحد الأصدقاء، فكان يعمل طبيبًا متخصّصًا هناك، ولما عادَ نقل لنا انطباعاته قائلًا:

"إن معظم الغادين إلى الكنائس الموجودة في مراكز المدن الكبرى، وفي الشوارع والأسواق المزدحمة هم من الشيوخ الذين انحنت ظهورهم، ويغلب عليهم النعاس عندما يجلسون، فقلتُ في نفسي: عجبًا! هل كل شباب أمريكا قد انحلّوا وفقدوا هويتهم؟

ثم ذهبتُ إلى كنيسة خارج نيويورك، كانت تقع على أحد التلال، ولما وصلت هنالك رأيت الشباب، بل والجميع رجالًا ونساءً يتوافدون على هذه الكنيسة، فكان القسُّ في الكنيسة يقدّم لهم النصح دائمًا، ولكن لم يكن هناك من أحدٍ يكترث لهذا الأمر، كانوا جميعًا غارقين في لهوهم ولعبهم، والقسّ يغض الطرف عن أفعالهم بحجة أن وجودهم في الكنيسة -بحدّ ذاته- ربحٌ ومكسبٌ كبير، كان بعضهم يتعاطى الهيروين، والبعض يتناول المورفين، والبعض الآخر مشغولٌ بأمور أخرى".

وإنني لا أدري هل هناك فائدةٌ تُرجى من وراء الذهاب إلى الكنيسة على هذه الشاكلة؟

أجل، إن كان الذّهاب إلى الكنيسة لا يقوّي الإنسانَ روحيًّا، ولا يثير مشاعره الإنسانية، ولا يسوقه إلى حياةٍ إنسانية؛ فلا معنى ولا غاية من الذهاب إليها أصلًا.

٥- مبادئ الفطرة في الزواج

أ. بسم الله: رأسُ كلّ خير

إنّ من ينجح في إقامة عشٍّ للزوجيّة وفقًا لما ذكرناه من مقاييس ومعايير فقد نجح في إحرازِ ما هو في غاية الأهمّيّة، فمثل هذا العشِّ يؤدي أحيانًا وظيفة المسجد وأحيانًا وظيفة المدرسة، وينفث روحَ الانبعاث

فـي الأمة بأسـرها، كمـا أن مثل هذا العـش الذي يخضـع للضوابط التي وضعها الله ﷻ يُعتبر الحمض النووي "*DNA*" للمجتمـع بأسره.

وهنـا أريد أن ألفت انتباهكم إلى مسـألةٍ مهمة، وهي أننا نقول "بسـم الله الرحمـن الرحيم" في كل أمر نقوم به، ونعتقد حصول البركة إن تحلينا بالإخـلاص فـي نطق هذه الكلمة، وكثيرًا ما شـاهد المؤمنون المخلصون هذه البَرَكةَ عيانًا.

ونستعيذ بالله من شرّ الشيطان في كل أمورنا، ونستعينه ﷻ أن يحفظنا؛ فنراعـي الضوابط التي وضعها الله لنا حتى في أخصّ أمورنا، ويكون لدينا يقينٌ بأن هذه الاسـتعانة والاسـتعاذة سـيترتب عليهما صلاح أبنائنا، وأن أصابـع الشيطان لن يمكنها أن تمتدّ إلى النتيجة.

فمن لم يأخذ بهذه الاسـتعاذة وتلك الاسـتعانة مُنِـيَ -نتيجةَ الإهمال الذي اسـتصغره- بمصائب لا قِبل له بها وانسـحق تحتها، ومن ثمّ يجب علـى الإنسـان ألا يغفل عـن أيّ نقطة في هذا الصـدد، وأن يؤدي ما عليه صغيرًا كان أم كبيرًا، ويأتي بكلِّ أسباب النجاح في الامتحان الذي يخضـع له، ويراعي الدقة البالغة عند أداء التكاليف المناطة به؛ ولا يقـع في الغفلة مطلقًا.

وإنّ الفتور اللحظي ليُطابِقُ الغفلةَ الصغيرةَ التي تنتاب السائقَ الجالس على عجلة القيادة، فتؤدي به إلى عاقبة وخيمة.

أجل، على المؤمن أن يتوكل على الله ﷻ ويلوذ به في كلّ وقت وحين، وأن يكون هذا الشـعور منطلقَه في مسـألة النكاح أيضًا، تلك المسألة التي قد تبدو أمرًا بسيطًا، لكن غايتها لا بد أن تكون رضا الله لا غير، ولا يُتصوّر نكاح لا يُبتغى فيه وجهُ الله أن تتحقق فيه البركة أو يرُجى منه الخير.

أجـل، إن النكاح رابطةٌ معنوية، وكرامته تكمن في ارتباطه بالله تعالى، وعلـى ذلـك لا بدّ وأن يكـون المقصد من النكاح مرضـاة الله حتى تحفّ بـه البركـة، ولا بد أن يصاحبه الدعـاء، وألا يخرج عن إطار الضوابط التي وضعهـا الله سـبحانه، وأن يُسـمّى الصـداق؛ ومـا ذاك إلا ليكتـب للزواج الاستمرارية، فأيّما نكاح ذُكِرَ فيه اسم الله غشيه اليمن والبركة، وكان سبيلًا للتوافق بين الزوجين، وكان ذلك الزواج محفوفًا بعناية الله ﷻ، وعسى الله أن يكتبَ له البقاءَ.

إن حـوادث الطـلاق كثيـرة في أيامنـا الراهنة، وكثيرًا مـا يبدو الزواج ممحوقَ البركة، سيّئَ الطالـع، لا خير يُرجى منه.

أجـل، إن لـم نبتـغِ وجهَ الله فـي أعمالنا، ولم نـراع القيم الإنسـانية، بـل كان أداؤنـا للأعمـال عاريًا عن الهـدف، موصوفًا بالعشـوائية، مرتبطًا بإشـباع الغرائز فحسـب، فإنَّ من المتحتم أن يتزلزل نظامنا الأسـري كما اهتز وتزلزل نظام الأسرة في الغرب من الأساس، والواقـع خيرُ دليلٍ على ذلك، نسأل الله السلامة.

ب. اختيار شريك الحياة

أما عن أول مسألة لا بدّ أن يفكر فيها مَن يُقدم على الزواج فهي البحث عن شريك حياة يتناسب معه في مشاعره وأفكاره، فكثيرٌ من الشباب الآن يقيّم هذا الأمر الحيوي بعواطفه ليس إلا، ويسعى إلى تأسيس عش للزوجية فور تعرفه على فتاة التقى بها في الشـارع أو السـوق، ولا يحاول أن يسـأل نفسـه: من هي؟ وما محاسنها، وما مساوئُها؟ وما المنطق الذي يُعتمد عليه فـي الزواج وتأسـيس عشّ الزوجية؟... بـل يتغاضى عن كل ذلك، وبدهي أن مثل هذه الزيجات تكون عاقبتها وخيمةً، ولو أنهم استعانوا برأيِ غيرهم ممن يقيّمون المسألة تقييمًا أفضل وبمعايير أدقّ لكان أنفـع.

إن الـزواج الـذي يعتمد علـى العاطفة قد يتحوّل من عـشٍّ يُرجى منه أن يكون روضةً من رياض الجنة إلى عشٍّ يؤول إلى حفرة من نار جهنم، وهناك الكثير ممّن نعرف ثباتهم وحماسـهم وعشـقهم لِدينهم يعيشون في أزمـة عميقـة وفوضى كبيرة منشـؤها عدم الحيطة في هذه المسـألة وعدم التوافق بين الزوجين.

فالمشـاكل والنزاعات لا تنتهي في مثل هذه الأسـر، بل تتوالى تباعًا، فالرجـل يريد أن يلتزم بدينـه، والمرأة لا تريد، والعكس صحيح، ومن ثَمَّ فإن مثل هذا الرجل وتلك المرأة لن يتوافقا في أسرة واحدة ولا يمكنهما أن يتشـاركا في عشٍّ واحد، بل على العكس يعيشـان كالأقطاب المختلفة دائمًـا، ففي مثل هذه الأسـرة يُقـرأ نوعان مختلفان متضـادان من الكتب، ونوعان من الجرائد، ونوعان من القصص، ويُعقد نوعان من الاجتماعات الأسـرية، فالمـرأة تريـد شـيئًا والرجل يرفـض، والمرأة تتكلّـم عن الدين والإيمان والأخلاق، والرجل يتّخذ هذا ذريعةً للنزاع والشـجار، ففي مثل هذه الأُسَر طِرازان من الحياة، إن جاز لنا أن نسمّيها حياةً.

وأحيانًـا ما ينحاز الأطفال في هذا التضارب والصراع إلى طرفٍ دون آخر، وأحيانًا يفقدون مشاعرهم وأحاسيسهم بين هاتين الجبهتين ويقفون موقف العداء للمجتمـع والأسرة.

بنـاءً علـى ذلك فإن مـن الواجب للرجـل والمرأة حيـن الإقدام على الـزواج أن يُمعنـا التفكير في الأمر، ويستشـيرا ذوي الخبرة، ويحدّدا جيّدًا أسباب الأفضلية.

وفـي هـذا الصدد يقول رسـول الله ﷺ: "**تُنْكَـحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَـعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**"(١٣).

(١٣) صحيح البخاري، النكاح، ١٦؛ صحيح مسلم، الرضاع، ٥٣.

والدين هو أهم أسباب التفضيل، فلو أن هناك اثنتين: إحداهما ذات جمال، والأخرى متوسطة الجمال لكنها كاملة التدين، وأتيح لك الخيار بينهما فلا بدّ من تفضيل ذات الدين والأخلاق.

أجل، إن الحياة الأسرية ليست مقصورة على الدنيا، بل لها امتداد في الآخرة أيضًا.

ورغم أن البيت السعيد يُرجى منه أن يكون روضةً من رياض الجنة فقد يتحول من جراء بعض الأخطاء إلى قبرٍ موحش، يدمِّر كلّ السبل التي توصِّل إلى السعادة في الآخرة.

ومن ثمّ لا بدّ من مراعاة مسألة الدين في اختيار شريك الحياة، لا سيما الأمور المتعلقة بالعقيدة، فأيُّ أبٍ يزوّج ابنته لشخصٍ منحرفٍ فاسد العقيدة يُعدّ مسؤولًا عن جميع المشاكل والمثالب التي ستقع، وينطبق الأمر على الرجل أيضًا، فإن كان هناك فسادٌ في العقيدة لدى الرجل فهذا يعني فسادَ الأمر من الأساس؛ لأن الإيمان ركنٌ أساس في صحة النكاح، فمن لم يؤمن بالله واستخف بأوامر الدين فلا يصح نكاحه بمؤمن ولا مؤمنة.

وبدهيّ أن الزواج الذي يُبنى على المقام والمنصب والشهرة والوظيفة فيه استخفافٌ بالدين، ومثل هؤلاء يخسرون في وقتٍ هو أدعى ما يكون للكسب.

إن التدين هو أهم مطلب لا بدّ أن ينشده كل من الزوجين إزاء الآخر قبل إقدامهما على الزواج، فأصول الدين هي العقيدة، والارتباط بإنسان فاسد العقيدة ليس زواجًا بالمعنى الحقيقي بحال من الأحوال، وإنما هو مجرَّد ارتباط.

وما أوردناه من أفكار هنا لا يهمّ سوى المتدينين الذين يذعنون لمعايير الدين وضوابطه، وأقول مرة أخرى: إن الزواج هو دعامةٌ مهمة جدًّا للسعادة في الدنيا والآخرة، فمَن أخطأ في مسألةٍ مهمة كهذه فقد أظلم دنياه وآخرته.

إن لم تعملوا بدايةً على تغذية مَن يحيط بكم من أبناء وأقرباء بالمشاعر الدينية تعذّر عليكم فيما بعد أن تتدخلوا في أمر زواجهم إلا أن تسعفكم عناية الله الخارقة وتقوّم الاعوجاج الناشئ عن إهمالكم وخطإكم، وعندها نقول "هذه عناية الله"، ونتمنى دوامها، بيد أنها قد لا تتأتى دائمًا.

ج. تربية الولد الصالح

يجب على الأب والأم أن يتفقا أوّلًا على تنشئة الولد الصالح، فالأمُّ إذا لم يكن لديها استعداد أو قابلية لتربية الطفل، أو كانت على استعداد وقابلية لكنها امتنعت عن تحمل المسؤولية، وكان الأبُ لا يكترث بمشاكل أولاده أبدًا؛ فإن مصير أولادهما الذين يقعون تحت وصايتهما هو اليُتْم، وإن كان الوالدان على قيد الحياة.

لقد زوّد الله ﷻ الأمّ بالشفقة والرحمة، والرقّة والحساسية، وجعلَ تربية الأطفالِ جزءًا من طبيعتها؛ ومن ثمّ فإن عليها أن تستثمر هذه الطاقة الكامنة في روحها في سبيل الارتقاء بأطفالها إلى الإنسانية الحقيقية؛ لأنها بمقتضى هذه الفطرة معلّمة ومربية ومرشدة، وأعظم مهامّها تربيتها لأولادها، يقول رسول الله ﷺ: "**مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**"(١٤)، وهذا الحديث يبرز بشكلٍ جلي الدور الرائع الذي تضطلع به الأم في تربيتها لطفلها.

(١٤) سنن الترمذي، البيوع، ٥٢.

وإذا كان على الأم أن تؤدي ما تقتضيه الخصال التي زُوّدت بها فعلى الأب أن يكون حذرًا دقيقًا كيِّسًا واعيًا على الدوام وفقًا لما تقتضيه فطرته ومكانته، فيشتغل بالتجارة والزراعة وغير ذلك من الأعمال، ويملأ الفراغَ الآخرَ في الأسرة وفقًا لما تستلزمه طبيعته وفطرته.

أجل، إن الرجل بما أوتيه من بنيةٍ مختلفةٍ وقوّةٍ وتحمُّلٍ مهيَّأٌ للقيام بأعمال أخرى، وفي الواقع فإن الرجل لم يزل هو ذاك الذي تناط به المسؤوليات الخاصة، بدءًا من تقطيع الأشجار في الغابة، وحرث الأرض وزرعها بالشعير والقمح وحصادها، حتى الاشتغال بأشقّ الأعمال في التشييد والبناء أو المصانع، وفي رأيي أن الرجل الذي يستطيع أن يتحمّل مثل هذه الأعمال الشاقّة بجسده وإرادته، عليه أن يحافظ على مكانته، وألا يشتغل بأعمال النساء، ولا يجعل امرأته تشتغل بأعمالٍ تتجاوز طاقتها.

فضلًا عن ذلك فإن الرجل هو مثالُ التحمّل، ولكنه ليس بطلَ الشفقة، فالشفقة هي أهم خصال المرأة إذ هي التي حملت ولدها في بطنها تسعة أشهر، وهي التي تحمّلت الكثير من المعاناة عند ولادتها لطفلها، وتجشّمت الصعاب في تربيته، فإذا أنَّ ليلًا نهضت على الفور لإسعافه، وإن بكى ضمّته إلى صدرها؛ إنها تعيش ليحيا الطفلُ انطلاقًا من انسياق وشوق نابعين من فطرتها، وهكذا فمن الممكن للرجل والمرأة أن يقيما بترابطهما الأسري عشَّ زوجيةٍ يحاكي قصور الجنة، ويشاهدان من خلاله جماليات الآخرة.

وفي الغرب يعمل كلٌّ من الزوج والزوجة، وحينذاك يعهدان بالطفل للغير أو الحضانة، وإنّ المرأةَ حينما تقوم بالعمل إلى جانب الرجل فإن أولادهما سيتعرّضون للوحدة وعدم الرعاية، وسيتلمّسُ الأبوان لأنفسهما أعذارًا وحججًا قائلين: إنّ مَن أودعْنا عندهم أولادَنا أولو خِبرةٍ ورحمة،

وسيُحسِنون رعايةَ أبنائنا أكثر منا... إلخ، والحقُّ أنّ متطلّباتٍ أخرى يحتاجها الطفل ولا يجدها في غير أبويه.

قد يغسلون ملابسَ الطفل، ويراعون الدقّةَ في موعد تناوله لطعامه، فإن أراد أن يلهوَ خرجوا به إلى الملاهي ليلعب فيها، لكن مَن يفعل هذا لا يمكنهم أن يكونوا أمًّا أو أبًا ألبتة، ولا يقدرون على أن يمنحوه الشفقة التي يحتاج إليها، فالشفقة هي رابطةٌ فطرية يقرؤها الطفل في وجه أمه، ويجدها على صدرها، ويشعر بها في حِجْر أبيه، وليس هناك شيء يُشبع الطفل سوى هذا الشعور.

ولنضع الآن جانبًا الأطفالَ الذين يَعهد بهم ذووهم إلى الحضانات ولنتناول الأطفال الذين أسلمتْهم أُسَرُهم في سنّ الصغر لحرفيّ في ورشةٍ ما، فإن كان هذا الحرفيّ قاسيًا غليظَ القلب انعكس ذلك على الأطفال الذين يُعانُون من قسوته باستمرار، فيَنشؤون على القسوة من غير أن يشعروا بذلك، لا يتورّعون عن التعامل بغلظة مع آبائهم وأمهاتهم، فضلًا عن الأجانب، فإذا كان فعل هؤلاء الناس غلاظ القلوب سيؤثّر سلبًا على الأرواح الرقيقة لهؤلاء الأطفال الأبرياء، ويولّد هذا القدر من النتائج السيئة في مرحلة الصبا فليس من العسير أن نجزم بالحالة التي سيكون عليها هؤلاء الأطفال الذين أسلمناهم إلى الآخرين منذ نعومة أظفارهم.

إن الأمهات مَظهرٌ من مظاهر رحمة الله الذي عرّف نفسه لنا بالرحمن الرحيم، ولقد وردت كلمةُ "بسم الله الرحمن الرحيم" في القرآن مائة وأربع عشرة مرة. أجل، يمكننا أن نلحظ تجلّيَ ربّنا ﷻ على البيت برحمانيته ورحيميته من خلال اهتمام الأم بأولادها ورعايتها لهم، ولا جرم أن هذا الحظّ العلوي لا يمكن أن يضاهيه شيءٌ أو يُستبدَل بشيءٍ في الدنيا.

في فترة ما كان هناك شبابٌ درسوا في الجامعة، بل تزوّدوا بالماجستير والدكتوراه إلا أنهم وقعوا في براثن البؤر الإرهابية؛ فنشأ جيلٌ قاسٍ بلا رحمة أو شعور، أبكى أبويه، وأحرق فؤادهما، غير أن هذا لا يمكن أن يتخذ ذريعةً لعدم تعلمهم وتشجيعهم على العلم؛ إذ إن أولئك كانوا على خلاف القاعدة؛ فلا أحد يربّي ابنه لكي تتلقّفه رصاصة فتقتله، أو يزعزع من أمن المجتمع، ولكن قد لا يمكنه أن يحول دون انجرافه إلى التيارات غير المتوقعة، ولذا يجب على الأبوين أن يجعلا البيت حصنًا منيعًا ضدّ المساوئ المفاجئة والمخاطر المحتملة، وألا يسمحا بضياع أولادهما، وطريق هذا هو اتخاذُهما من التربية الأخلاقية هدفًا لتربية أبنائهما.

والحاصل أن على الوالدين أن يبذلا وسعهما من أجل تنشئة جيلٍ حساس واعٍ، وَفِيّ لوطنه وأمته ودينه، وألا يسمحا بأن يتعرض هذا الطفل لفراغ عقلي وقلبي وشعوري ومنطقي، فلو أن الأبوين متدينان متصلان بالقرآن، ويعرفان قواعد الإسلام فسينشأ الأطفالُ بإذن الله تعالى واعين يسطع بهم نجمُ مستقبلِ أمتهم.

٦- الفضيلة العليا للأم

الأم هي أهمّ عنصرٍ في الأسرة، وهي التي تنشئ الأمّة، ولها في نظر الإسلام منزلة عالية؛ حتى إن رسول الله ﷺ يقول: "**اَلْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ**"(١٥).

ذلك لأن الأم يدٌ مباركة تصوغ أمة، ومؤسّسةٌ لعشٍّ يشكّل الخلية الأولى في المجتمع؛ ذلك العشّ الذي يغمر الأطفال وما حولهم بالنشاط والسعادة والسرور والحيوية...

(١٥) سنن النسائي، الجهاد، ٦؛ سنن ابن ماجه، الجهاد، ١٢؛ القضاعي: مسند الشهاب، ١٠٢/١ (واللفظ للقضاعي).

أجل، لقد منح الإسلامُ الأمَّ منزلةً عالية جدًّا، حتى إنّ محاولةَ منحِها منـازلَ جديـدة -مقارنـةً مـع منزِلَتِها في الإسـلام- تهوينٌ من شـأن هذا الكائـن المقـدّس، وهو تمامًـا كَمَنْ أراد أن يلبسـها طرطـورًا مزينًا بقطـع مـن الزجـاج كبديلٍ عـن تاجِها المرصّـع بالزبرجد، وقد خلـق الله الذكر والأنثى وزوّدهما بما زودهما وفقًا لأدوارهما، ووهبهما ما وهب حسـب اسـتعداداتهما، فالمرأة مخلوقٌ ضعيف نحيف جسـمانيًا، تتأثر بالأحداث أسـرع مـن الرجـل، ومـن الإجحـاف أن نبعدهـا عـن الأعمـال الملائمة لطبيعتها، ونستخدمها في أمور لا تتوافق مـع رقتها وملاحتها ووقارها.

لقـد زوِّدت المرأة -ذلك المخلـوق الرقيق- بخصائص تفوق الرجل فيها بمسـافات بعيدة، فهي بطل الشفقة، ترعى أولادها أعظم رعاية، حتى إن الأب لا يمكـن أن يجاريهـا في ذلك، وهـذا الأمر لا يقتصر على عالم الإنسـان فحسـب؛ فالدجاجـة رغـم أن رأسـمالها هي حياتها فقـط، فإنها تضحي بها لإنقاذ وليدها من فم الكلب، وهكذا وضـع الله ﷻ هذا الشعور العميق بالشفقة لدى كلّ الأحياء تجاه أولادهم، وهو شعور سام، فانزعوا مـا تنزعون منهـا، وامنحوا ما تمنحون، فسـيظل كلّ هذا ضحلًا مضمحلًّا أمام ما يهبه ربّ العزة ﷻ.

لقـد حاولنـا في هـذا الفصل -الذي عرضنا فيه كلّ مـا عرضناه بنظرة إجمالية- أن نقدّم النصح حول كيفية تأسـيس عشّ الزوجية، وتوقفنا عند الجانـب العقـدي والجانـب العملي في الإسـلام، وعند تديـن الزوجين، وتقسـيم المسـاعي، والتعاون بين الزوجين، وتربية الأطفال تربيةً صالحة، وشـدّدنا علـى بعض الأمـور المهمة كتكوين أمّة سـتكون مَفخرةً لسـيدنا رسول الله ﷺ، وفي الفصل التالي سنتوقف عند ضوابط الأسرة.